الفكر الاجتماعي عند المسيحيين في
العصور الأوربية الوسطى

العصور الأوربية وظهور المسيحية:

عرفت أوربا أكبر المدارس الفلسفية اليونانية في القرون الثلاثة السابقة على ظهور المسيحية هي مدرسة أتباع أفلاطون ومدرسة أتباع أرسطو والمدرسة الابيقورية والمدرسة الرواقية.

وبدلا من أن يغزو التفكير الفلسفي اليوناني العقلية الشرقية الدينية كما كان يأمل الإسكندر، فإن التفاعل بينه وبين التفكير الديني الصوفي الشرقي انتهى بانتصار هذا الأخير ممثلاً في العقيدة المسيحية التي انتشرت في جميع أرجاء الإمبراطورية، وهكذا تحقق الامتزاج بين الشرق والغرب.

وكانت ثورات العبيد والطبقات المستغلة تتوالى ضد روما بدون جدوى، إلى أن نجحت المسيحية فيما فشلت فيه الثورات، فإن جميع الطبقات المغلوبة على أمرها اعتنقت المسيحية التي تنهى عن عبادة الإمبراطور وتنادي بالمساواة أمام الله وتبشر بحياة أخرى ينال فيها المظلومون ما يستحقون من إنصاف فسهل بذلك على الكثيرين من رعايا الإمبراطورية ترك دياناتهم الوثنية وهجر آلهتهم القديمة التي لم تحميهم من ظلم الرومان.

أثر الديانة المسيحية في الحياة الاجتماعية:

لقد أثرت الديانة المسيحية في الاتجاهات الفكرية والسياسية التي سادت الامبراطورية الرومانية. حقاً إن المسيحية لم تحمل في بدايتها نظاماً أو فكراً سياسياً محدداً، وإنما حصرت نطاق اهتمامها في المسائل الدينية وحسب، ولكنها اجتذبت الطبقات الدنيا من الشعب الروماني. خصوصاً وأنها نادت بأن الخلق متساوون في نظر الخالق، وأنه لا فرق بين فرد وآخر بسبب الطبقة أو الفقر أو المنزلة الاجتماعية... إلخ. ولقد وقع المسيحيون تحت الاضطهاد الروماني فترة طويلة من الزمان، ولكن عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية كدين رسمي للإمبراطورية في القرن الرابع الميلادي، تغيرت الأوضاع فسادت الديانة المسيحية وسادت على غيرها من العقائد وأصبحت هي الدين الوحيد المسموح به في الإمبراطورية الرومانية.

ولعل السبب الذي جعل الإمبراطور قسطنطين يعترف بالديانة المسيحية هو سبب سياسي في المحل الأول، ذلك أنه كان يحتاج إلى تأييد الكنيسة، وبالتالي إيمان رجال الكنيسة ورجال الدين المسيحي برمتهم وتأييدهم الدولة.

ولكن السلطة الكنسية المتقدمة نحو الازدهار، ما لبثت أن قامت في مواجهة سلطة الدولة أو إمبراطور الدولة، خصوصاً إذا حاول الإمبراطور التدخل في شئون الكنيسة وتعاليمها، فوجد المسيحيون أنفسهم أمام طريقين، أما أن يطيعوا الله وأما أن يطيعوا الحاكم. وهم كانوا يفضلون الطريق الأول. ومن ثم فلقد نشأت سلطتان سلطة دنيوية يرأسها الإمبراطور وأخرى دنيوية يرأسها البابا، كما ذاعت العبارة القائلة (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وبذلك كان المسيحي خاضعاً لنوع من الالتزام الثنائي بين الله وبين الحاكم. ولقد كان من تأثير المسيحية أن ظهر مذهب الغايتين، غاية دنيوية متصلة بالدولة، وغاية أبدية متصلة بالكنيسة.

ولقد ازداد الصراع بالتدريج بين الكنيسة ورجال الدولة ابتداء من القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر، ولم تعد النظرية التي تقرر نوعاً من المساواة بين السلطتين الدنيوية والدينية قائمة فادعت الكنيسة أنها تملك السلطة القصوى دينية ودنيوية وتدخلت في تعيين الحكام، وتسيير دفة الشئون السياسية مستندة إلى القضية القائلة بأن سلطة الكنيسة تستمد مباشرة من الله بينما سلطة الدولة تنبثق من رجالها وليس من رجال الكنيسة.

ولعل هناك عوامل عديدة أسهمت في ازدياد نفوذ رجال الكنيسة وبالتالي ازدياد الصراع بينهم وبين رجال الدولة أهمها أن رجال الكنيسة استطاعوا أن يمتلكوا إقطاعيات شاسعة تقترب مساحة من ممتلكات الحاكم الأمر الذي مكنهم من زيادة نفوذهم وضغطهم على الحكام.

وظهر صراع عنيف بين أنصار البابوية وأعدائها، الأولون يرون أن الكنيسة لها السلطة القصوى، والآخرون يرون أن رجال الدولة هم وحدهم أصحاب السلطة الكبرى في المجتمع.

نماذج من مفكري المسيحيين القدامى:

القديس أوغسطين 354م – 430م :

في كتابه مدينة الله الذي كتب بين 443-426م يدافع أوغسطين عن المسيحية ضد الوثنية ويضع مقياسا أو معيارا لسمو النظم الاجتماعية وانحطاطها وأنماط السلوك التي تحقق للفرد الغفران الإلهي أو تبعده عن هذا الغفران، ولقد نحا أوغسطين منحى أستاذه الروحي أفلاطون في تصويره لمدينة الله وفي نقده للملكية الفردية

ومناداته بالملكية الجماعية، مؤيدًا المبدأ القائل بأن ثروات الأرض قد أعطيت للأفراد على السواء.

إنتقد فكرة الملكية الفردية لأن الله أعطى ثروات الأرض لكل الأفراد على السواء، ولكن ذهب أوغسطين إلى أن ذلك لا يعني إلغاء الملكية الفردية تماماً، فيمكن للأفراد أن يتملكوا ولكن شريطة أن يعطوا للفقراء جانباً من ثرواتهم على اعتبار أن ذلك يمثل جزءاً من النظام الإلهي الاجتماعي، وهي مسؤولية الأغنياء في كفالة الحياة الكريمة للفقراء.

الشريان الرئيسي الذي وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحي في العصور الوسطى كان يتمثل في شخصية القديس أوغسطين، ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر -قبل اعتناقه المسيحية- بالمبادئ الأفلاطونية التي أطلع عليها في بعض كتابات شيشرون وأفلوطين، ومن ثم اتخذ هذه المبادئ نقطة البدء عندما شرع يفكر في وضع فلسفة دينية.

ويرى أوغسطين أن العالم منذ سقوط "آدم" إلى اليوم انقسم إلى مدينتين أما إحداهما ستحكم مع الله حكمًا سرمديًا، وأما الأخرى فستظل مع الشيطان.

وأن المدينتين -الأرضية والسماوية- تمتزجان إحداهما بالأخرى في هذه الدنيا، أما في الحياة الأخرى فسيتميز الرشد من الغي،- إنه ليس في مستطاعنا أن نعرف في هذه الحياة من ذا يكون في نهاية الأمر من زمرة الأخيار، ليس في استطاعتنا معرفة ذلك حتى عن أعدائنا الظاهرين. ومدينة الله قوامها جماعة الأخيار، والعلم بالله لا وسيلة له إلا عن طريق المسيح، فهناك أشياء يمكن معرفتها بالعقل، أما عن سائر المعرفة الدينية فالحصول عليها يكون بالكتاب المقدس.

ولقد تصور أوغسطين أن الإنسان يتكون من عنصرين رئيسيين هما الروح والجسد ولذلك فإنه ينتمي إلى مملكتين أو عالمين هما عالم المادة وعالم الروح، والأول أسمى من الثاني، ومع أنه لم يذهب إلى حد المناداة بإفناء الجسد أو تعذيبه كوسيلة للخلاص إلا أن على الإنسان دائمًا أن يسعى إلى السيطرة على قوى الشر التي تنتج عن غرائز الإنسان وعن العنصر المادي الذي يمتلكه، وهو في هذا الصراع مع قوى الشر إنما يرنو دائمًا إلى خلود الروح حيث الحقيقة الأبدية.

ويقوم منهج أوغسطين على أن الدين لا الفلسفة هو سبيل السعادة والنماء، لأن الفلسفة لا تتعدى مرحلة المعرفة النظرية في محاولتها التوصل إلى الله وبلوغ السعادة، بينما الإيمان الديني يمكن المؤمن من التوصل إلى الله بالتجربة الوجدانية القائمة على الاعتقاد والشعور والعاطفة والإرادة والشوق وبذلك يحقق لنفسه الطمأنينة والسعادة.

ويقوم منهجه ثانيًا على أن الإيمان شرط للفهم، كما أن الفهم شرط للإيمان.

ويوضح أوغسطين أن وجود العالم وقوته ونظامه الدقيق لا يمكن أن يكون من ذاته بل من موجد حكيم هو الله، وله دليل أخر يستند إلى الحقائق العقلية، فيقول بأن العقل يصل إلى الحقائق بان يكتشفها، لا بأن يخترعها.

وتعرض لمشكلة وجود الشر في العالم وأن الوجود هو الخير، والخير هو الوجود، وهو فيض صادر عن الله مصدر الوجود والخير، وأن الشر ليس له وجود إيجابي بل سلبي فهو عدم الخير، أي هو نقص الخير، ومادام الشر نقصًا فمصدره المخلوق لا الخالق ومنشؤه الإرادة، فالله خلق الكائنات العاقلة خيره وأعطاها الإرادة، وقد نتج الشر عن عدم اختيار المخلوق للخير.

سالسبيري 1115م-1180م:

كان الموضوع الذي شغل البال في العصور الوسطى هو تقسيم السلطة بين الدولة والكنيسة ولقد كانت نظرية الآباء مهيأة لمثل هذا النضال بين الدولة والكنيسة، لأن الآباء قد قالوا بنظرية القديسين بولس وبطرس من أن الحكومة نظام إلهي، ولكن الكنيسة نظام إلهي هي الأخرى، ومن هنا ظهرت مشكلة تعيين أيهما أسبق على الآخر.

ولقد تعقد الموقف فيما بعد عندما دخلت الكنيسة في النظام الإقطاعي وأصبحت ذات إقطاعيات شاسعة، على حين كانت السلطة المدنية تنزع إلى قصر مهمة الكنيسة على النواحي الروحية بمنأى عن النواحي المادية، حتى تكون رمزًا روحيًا دينيًا بمعنى الكلمة.

وقد أوضح القس الإنجليزي سالسبيري أن الدولة تحكم حسب تعاليم الدين فرجال الدين في رأيه فوق رجال السياسة وأكثر منهم ضرورة للمجتمع، ويجب على الساسة ألا يتعدوا سلطاتهم المحدودة، والتي إذا تعدوها فإن على الأفراد أن يثوروا ضدهم ويخرجوهم كما أن قتل الطاغي مباح، على أن الحكومة المدنية ضرورية لكبح

جماح الأشرار.

وقد كانت نظرة سالسيبري إلى الدولة نظرة عضوية حيث شبه المجتمع بالجسم الإنساني، والطبقات الموجودة به كأعضاء في الجسم الاجتماعي الكبير، فالحاكم هو رئيس النظام السياسي يقابل الرأس في الجسم، والكنيسة تقابل الروح، وأعضاء المجالس التشريعية يقابلون القلب، والقضاة ورجال الإدارة يقابلون الحواس، والجيش والموظفين هم بمثابة اليدين، والمراقبون الماليون المعدة والأمعاء، أما العمال والفلاحين فيشبهون القدمين.

وأوضح سالسيبري تفوق رجال الكنيسة وتبعية وخضوع السلطة الدنيوية للسلطة الكنسية، بل قرر بوضوح أن السلطة الدنيوية يجب أن تكون خاضعة لله ولأولئك الذين يمارسون وصاياه وتعاليمه ويمثلونه على الأرض.

وقد ميز سالسيبري بين الملك وبين الطاغية، فالملك يحكم لصالح رعاياه، أما الطاغية فإنه يحكم لصالح نفسه، كما أن الملك يحكم وفقاً للقانون، بينما يحكم الطاغية وفقاً لشريعة الغاب أي يحكم بالبطش وبقوة السلاح.

ويرى سالسيبري أن القوة والبطش والقضاء على الحريات وعدم الاهتمام بالمصالح العامة يبيح قتل الطاغية، فيقول (أنه ليس من القانون فقط اغتيال أو قتل الطاغية، بل ومن العدالة والصواب أيضاً، ذلك لأن من استبد بالسيف لا بد وأن يقتل بنفس السيف)، إن الحاكم يجب أن يكون مسؤولا عن إطاعة القانون الذي رأيناه مستمداً من القانون الإلهي كما يكون مسؤولا عن تحقيق العدالة وإثراء الفضيلة.

ويقرر سالسيبري أن السلطة السياسية يجب أن تقام على أفكار القانون الإلهي وعلى العدالة والفضيلة، كما يقرر أن حق الثورة على الطغاة هو واجب ملزم للجميع.

توما الأكويني 1225م-1274م :

إمتازت فلسفته بالتفرقة الواضحة بين العلم واللاهوت فقال أن الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مبادئ المسيحية، لأن العقل البشري يتقبل هذه المبادئ، وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تنفيذ مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين في الدين، على أن ثمة عنصرًا مشتركًا بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التي تسندها السلطة المقدسة دون أن يقدم الأدلة الفلسفية على وجود الله وماهيته.

وتقوم فلسفة توما الأخلاقية على أساس أن الشر غير مقصود لأن الكائنات كلها ترمي إلى التشبه بالله في الخير كذلك يقول أن سعادة البشر الكاملة تقوم على التأمل في الله لأعلى اللذائذ الدنيوية، لأن الله هو الغاية القصوى والعقل الطبيعي هو مجموع الفوائد التي تقر الخير وتنبذ الشر.

وكان توما الأكويني أرسطي النزعة وأكد ما ذهب إليه أرسطو من أن بالإنسان غريزة حب الاجتماع، ثم ذهب إلى أن المجتمع المدني يشمل ثلاثة أفكار:

- الإنسان اجتماعي بالطبيعة وأن المجتمع هو الوسيلة الطبيعية للإنسان لكي يحقق أغراضه.
- المجتمع يقوم على وحدة الغرض وتحقيق الآمال المشتركة التي يستهدفها الأفراد الذي يتكون منهم.
- لابد من وجود سلطة عليا توجه المجتمع نحو الصالح العام تساعد الحكام على اصطناع الوسائل للوصول إلى تحقيق الأهداف الاجتماعية. وذلك لا يتحقق إلا بتنظيم سياسي واسع يقوم على اتفاق بين الحاكم والمحكومين، والقانون الذي يخضع الأفراد له لا يمثل رغبة الحاكم بل يمثل رغبة المجموع أو رغبة الأمير الحاكم كممثل للجماعة.

وفي اعتقاد توما الأكويني أن الإنسان اجتماعي بالغريزة أو بالطبع كما ذهب أرسطو، وبناء عليه فإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا مجتمع لأن المجتمع هو الوسط الذي يحقق فيه الإنسان إنسانيته.

كذلك رأى الاكويني أن المجتمع إنما ينبني على الخدمات المتبادلة أو على تبادل الخدمات التي تؤدي إلى المجتمع الأفضل، ورتب على ذلك ضرورة أن يكون هناك نوع من التخصص في الأعمال يقوم بين الطبقات والفئات والجماعات الاجتماعية المختلفة لتنتج كل منها ما يحتاج الآخرون إليه من سلع وخدمات.

كما بحث الأكويني في تأثير الظروف المناخية على العادات والتقاليد والعقلية السائدة في المجتمع على غرار ما صنع أرسطو، مؤكداً سمو مكان المناطق المعتدلة ومستغلاً هذه الفكرة للتدليل على تفوق الشعوب المسيحية على غيرها من الشعوب الأخرى.

وتكلم عن مسألة وظائف الدولة التي حصرها في أمور أربعة، وما عدا هذا من أمور أبدية فهو يخص الكنيسة:

1- تحقيق الأمن والطمأنينة في الحياة وتأمين الأفراد من الجوع والأخطار.

2- ضمان العدالة بواسطة التشريعات القانونية.
3- ترويج الحد الأدنى من الأخلاق بمساعدة الكنيسة، التي تعمل أساساً للحفاظ على الحياة الأخلاقية، ونقول الحد الأدنى من الأخلاق، لأن الدولة في اهتمامها بالأمور الدنيوية الفانية تتجه نحو الأفعال اللاأخلاقية.
4- حماية الدين، وفي حماية الدولة للدين محافظة ومساعدة الكنيسة ومن هذا المنطلق الأخير نجد أن الدولة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالغاية الأبدية وذلك لكي توفر لأعضائها الظروف الملائمة التي تمكنهم من ممارسة سلطة التأمل فيما هو أبدي تحت إرشاد الكنيسة.

وقد أولى القديس توما الأكويني جل اهتمامه للبحث عن القانون أصله ونشأته وأركانه وأفاض فيه، وللقانون عند توما الأكويني أربعة أنواع:

القانون الأزلي: يطابق التدبير الإلهي للعالم أو هو القانون الذي يحكم به الله العالم، وهو الحكمة الإلهية المنظمة للخليقة، ومن ثم فهذا القانون يسمو على الطبيعة البشرية ويعلو فوق فهم الإنسان، ومع ذلك فهو ليس غريباً عن الإدراك الإنساني أو مضادا لقواه العقلية.

القانون الطبيعي: هو بمثابة انعكاس للكلمة الإلهية على المخلوقات وهي تتجلى في رغبات الإنسان الطبيعية التلقائية في فعل الخير، ومعنى هذا أن القانون الطبيعي هو القانون الذي يحكم به العقل أو النفس الفاضلة التي تتأثر بالقانون الأزلي.

القانون الإلهي أو المقدس: ويتمثل في الشرائع والأحكام التي أتت عن طريق الوحي أو التبليغ كالشريعة الخاصة التي أنزلها الله على اليهود وتشريعات المسيحية.

القانون الإنساني: ولما كان من المتعذر تطبيق الأنواع الثلاثة السابقة للقانون على بني البشر تطبيقاً كلياً وعاماً، فلقد قام القانون الإنساني الذي وضع خصيصاً ليلاءم الجنس البشري، وهو قانون إنساني خالص، وإن كان لم يأت بمبادئ جديدة إذ هو مجرد تطبيق للمبادئ العظمى التي سادت من قبل العالم.

والقانون الأزلي والقانون الإلهي يجسمان الغاية من اللاهوت المسيحي، فالقانون الأزلي هو تخطيط العالم باعتباره الغاية العظمى للإله الخالق، والقانون الإلهي هو إرادة الله التي تجلت في العهدين القديم والجديد.

ويرى توما أن طاعة القانون واجبة طالما كان عادلاً، أما القانون الظالم إذا كان معارضاً للقانون الطبيعي وللقانون الإلهي وللقانون الأزلي فلا تجوز له الطاعة بأي حال من الأحوال أما إذا كان معارضا لحق ثانوي فرعي فيطاع متى كانت مخالفته أشد خطرا على المجتمع.

دانتى ألغييري 1265م- 1321م :

فيلسوف إيطالي عاش ما بين عامي 1265- 1321 ومن أهم مؤلفاته (الكوميديا الإلهية) وكذلك (في المونـاركية).

يشير دانتي إلى الله كحاكم أوحد للعالم بأكمله فهو يقول أن الإنسانية جزء من العالم وأكد دانتي أنه يجب أن يكون هناك فرد يوجه ويحكم ويحسن تسميته باسم المونارك أو الإمبراطور فالشكل المونـاركي ضروري لتحقيق رفاهية العالم.

ويجب توضيح أن ما يقصده دانتي من إقامة حكومة مونـاركية عالمية لا يعني أنه يجسد حكومة الطغيان ذلك لأنه أكد مراراً وتكراراً على العدالة وعلى الحرية. فيقول دانتي أن العدالة تتحقق بأكمل معانيها في الحكومة العالمية التي يرأسها المونارك، ذلك المونارك الذي يتعالى عن الدوافع الشخصية ويتسامى عن النزعات الإقليمية، إلا أن دانتي يرى أنه لكي تتحقق العدالة فيجب أن يستند الحاكم إلى القانون.

والأمر كذلك بالنسبة إلى الحرية فهي تتحقق على أحسن صورة في الحكومة المونـاركية العالمية، والحق أن دانتي اعتبر الحرية أعظم هبة وهبها الله للجنس البشري، وأن هذه الحرية لا يمكن الوصول إليها في ظل حكومة تعمل على إخضاع المحكومين وتوجيههم لكي يكونوا في خدمة الحاكم.

إلا أن دانتي يعترف –رغم حماسه الشديد للحكومة العالمية المونـاركية- بأن هناك عدة عوامل تتصل بالعادات والتقاليد والعرف واللغة والثقافة تفرق دائماً بين الأمم والشعوب وتمايزها، وأوضح أن الإنسان ذو طبيعتين متمايزتين فهو ذو طبيعة مزدوجة وكل طبيعة من هاتين الطبيعتين تهدف إلى تحقيق غاية معينة، الجسم يهدف إلى تحقيق السعادة في الحياة الأرضية، والروح تهدف إلى تحقيق السعادة في الحياة السماوية.

وفي حين يكون العقل وتكون الفلسفة وتَلقي دروسها وسائلنا الوحيدة في بلوغ السعادة الأرضية، فإن القلب والإيمان ودروس اللاهوت تكون وسائلنا في بلوغ السعادة الأبدية. وبين أن حقائق الفلسفة تتم عن طريق كتابات

الفلاسفة، أما الحقائق المتعالية للاهوت فلا تتبدى لنا إلا من خلال الكتاب المقدس.

ويحتاج الإنسان إلى مرشدين اثنين في حياته، طالما أنه يبحث عن تحقيق غايتين، المرشد الأول هو البابا الأعظم الذي يقود الإنسان نحو الحياة الأبدية التي تتفق وتعليمات الإنجيل، والثاني هو الإمبراطور الذي يقود الإنسان نحو السعادة الأرضية التي تتفق وتعاليم الفلسفة.

ومعنى هذا النص أن سلطة الإمبراطور مستقلة عن سلطة رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا، وأن طريق الحياة الأرضية مختلف عنه في الوسائل والغايات عن طريق الحياة الأبدية، وأن السلطة الأرضية المتمثلة في الإمبراطور ليست خاصة بسلطة الكنيسة.

إن التصور الكنسي للدولة في العصر الوسيط اتجه في محورين المحور الأول يمثله أوغسطين وآباء الكنيسة الذين ذهبوا إلى أن الدولة تمثل المدينة الأرضية مبدأ الشرور والآثام التي لن تخلص إلا بالعناية الإلهية، والمحور الثاني يمثله توما الأكويني الذي امتزج رأيه بالفكر الأرسطي والذي قرر على عكس أوغسطين أن الدولة تعبير طبيعي للدوافع الاجتماعية للإنسان باعتباره حيواناً اجتماعياً وسياسياً.

أما دانتي فقد كان أول مفكر في العصر الوسيط يمزج بين الفكر الأغسطيني والفكر التوماوي في تركيب جديد خالف فيه الفكر الأغسطيني والتوماوي معاً، فلقد آمن دانتي بأن الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع، وهو يجتمع بالآخرين مكوناً للعديد من التنظيمات السياسية والاجتماعية ولذلك فلابد من تأسيس الحكومة العالمية لكي ينعم الإنسان بالعدالة والحرية.

ورأى دانتي أن سلطة الحاكم تستمد مباشرة من الله بدون أي وساطة من كاهن أو قسيس أوأسقف أو بابا، وبهذا لم تعد الدولة في عرف دانتي خاضعة للكنيسة ولا لرجالها بل أصبحت الحياة السياسية تهدف إلى تحقيق غايات دينية، وكان دانتي يهدف من ذلك إلى التقليل من سلطة الكنيسة.

الفكر الاجتماعي عند المسلمين القدامى
في القرون الوسطى

تقديم:

جاء الإسلام كدين وشريعة اجتماعية وفكرية ومعرفية واقتصادية وسياسية وثقافية.. مميزا، وهذه السمة هدفت إلى تغيير نمط الفكر البشري إلى ما فيه الخير والصلاح، فركز الإسلام على ضرورة تغيير العادات والتقاليد والنظم الجاهلية المتخلفة والسلبية، وطرح للعقل البشري البدائل الممهدة للتخلص من الشرور والآثام، وهو ما ظهر بوضوح في طبيعة الدين الإسلامي وتركيزه على المساواة والتكافل والعدالة، تحديد حقوق الإنسان وواجباته ووضع نظم محددة لأساليب الجزاء والعقاب، كما ناقش قضايا هامة تشغل اهتمامات العقل البشري مثل العلم، الفقر، المساواة، العدالة، التكافل، الملكية، العمل، الإنتاج، توزيع الثروة، الحرية،...

لذلك يمكن القول أن المبادئ والمفاهيم والقيم التي تضمنتها شريعة الإسلام أسهمت في ظهور علماء ومفكرين وفلاسفة ومصلحين مسلمين استمدوا أفكارهم وآرائهم من هذه الشريعة، أو على الأقل محاولة تكييف ما نهلوه من الفلسفات الأخرى مع ما يتوافق ما تضمنه الدين الإسلامي، فجاءت طروحاتهم متميزة كتب لها الاستمرار والامتداد نظرا لخصوصيتها، مما ساهم بلا شك إلى حد كبير في ازدهار ورواج الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

تعريف الفكر الإسلامي:

فالفكر الاسلامي يضم كل ما أنتجه العقل الإسلامي في كل المجالات وبخصوص كل الإشكاليات والقضايا المرتبطة بالوجود والطبيعة والعلاقات والحياة الإجتماعية عموما...، ولكن من وجهة نظر إسلامية، أي خاضعة للمنهجية الإسلامية التي حددتها الشريعة الإسلامية ابتداءً؛ وبذلك يتم إخراج كل الفلسفات والأفكار والمفاهيم التي تعتمد خلفية عقدية أو فلسفية غير إسلامية.

خصائص منهج التفكير عند المسلمين:

1. التعدد والتنوع والشمولية: وهو ما يقتضيه مضمون شريعة الإسلام للدنيا والآخرة، للنقل والعقل، فيحث الإنسان على بذل جهده للوصول إلى اليقين، ويعيب على أهل الظن، قال تعالى:"...وإن الظن لا يغني من الحق شيئا".
2. وحدة المعرفة: التي تربط بين أجزاء الوجود الكوني رغم اختلافها في كل واحد.

3. تكامل عالمي الغيب والشهادة: فالعقل والنقل في منهج التفكير الإسلامي متجاوران، وكل واحد يخوض في مجاله، فالعقل مجاله العلم الظاهر، والوحي مجاله العلم الباطن، والغيب لله وحده.
4. العقلانية: قيمة العقل في الإسلام تقوم على أسس:
-قدرة اكتشاف العالم الخارجي مع الواقع. -قدرة الربط والتحليل والاستنتاج للوصول لمعرفة الله.
5. الوسطية والاعتدال: فالحضارة الإسلامية عبر تاريخها لم تعرف تناقضا بين الروح والجسد أو بين الدنيا والآخرة وبين الدين والعلم،... كما حصل في بعض الحضارات الأخرى.
6. التجديد: ويعتبر سبيلا لاستمرار الدين وامتدادا لتأثيره، وذلك بتجديد الأصول بإزالة ما علق بها من شوائب، والفروع والنوازل المستجدة الناجمة عن تغير الأحوال عبر الزمان والمكان.
7. الإنفتاح: كما حدث في القرن 03 و04هـ حيث ترجم المسلمون كثيرا من المؤلفات الأجنبية المختلفة للإستفادة من منافعها، واستبعاد ما فيها من ضرر.
8. الإستناد إلى القيم والمعايير الأخلاقية: حيث نجد أن الشرع إشترط الإستقامة والتزام المسؤولية لسلامة العقل ويقظته، ليتوجه إلى جلب النفع ودفع الضرر لتحقيق مصالح الناس في دينهم وحياتهم.

مضامين الفكر الاجتماعي عند المسلمين:

جاءت المبادئ التي نادى بها الإسلام والتي وردت في القرآن والسنة والأحاديث النبوية الشريفة تحمل الكثير من المفاهيم والقيم التي تصلح لأن تكون منظومة حياة، والتي يمكن أن نذكر منها:

1. تضمنت الآيات القرآنية تنظيما اجتماعيا شاملا في نواحي عديدة (الأخلاق، الأسرة، الإقتصاد، السياسة، القانون، العلم، المعرفة،...) فكانت سببا في خلق نشاط فكري تناول العديد من النواحي.
2. إهتم القرآن الكريم بإبراز القصص وما صاحب ذلك من وصف المجتمعات مشيرا إلى الاختلافات بينها في العادات والتقاليد وكذا لأخذ العبر.
3. ركز القرآن الكريم على الناحية العلمية الوضعية والدعوة للبحث العلمي عن طريق العقل والمعرفة، تأكيدا على الربط بين الظواهر الاجتماعية أو بين السبب والعلة، كأن يكون فساد الحال نتيجة لفساد الأخلاق.
4. أن هناك دعوة لاستخدام الاستدلال والاستقراء مثل قوله تعالى: "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين".
5. في النظام السياسي أخذ الإسلام بنظام الشورى.
6. في المجال الاقتصادي سمح بالملكية الفردية ولكنها مقيدة وذات وظيفة اجتماعية عامة.

نماذج من مفكري المسلمين القدامى:

أبو نصر الفارابي: 870-950م

ولد الفارابي في (وسيج) من مدن فاراب بآسيا الوسطى (التركستان) عام 870م ولقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو وله مؤلفات عديدة في الفلسفة والمنطق والعلوم والسياسة، ومدينة الفارابي الفاضلة ليست صورة مصغرة لكتابات أفلاطون التي ساقها في جمهوريته. صحيح أن الفارابي قد تأثر كما استعان كثيرا بفلسفة اليونان وبجمهورية أفلاطون أيضًا، ولكنه ارتكز على الإسلام وأحكامه وأضاف إلى هذا كله تجاربه.

ويهتم الفارابي بتحديد مكانة الإنسان في المجتمع وهو يصف الأمة بالجسم الواحد الذي لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون وبتوزيع الأعمال وتنسيقها على أساس الاستعداد والموهبة والقدرة، وهي مماثلة عضوية حيث يرى الفرابي أنه كما في البدن أعضاء يخدم بعضها بعضا فكذلك في المدينة أفراد يخدم بعضهم بعضا حيث تكون: "المدينة حينئذ يخدم بعضهم ببعض مؤتلفة بعضها ببعض أو مرتبة بتقديم بعض وتأخير بعض، كترتيب الموجودات الطبيعية وائتلافها" .

أما بالنسبة إلى الدولة وبالنسبة إلى أرائه في السياسة والحكم فقد ذهب إلى أن الدولة لا تتقدم إلا إذا كان على رأسها الحكماء والفلاسفة المعروفون بكمال العقل وقوة الإدراك وقوة الخيال وهو هنا قريب من الفلسفة الأفلاطونية التي أعطت أصحاب المعرفة -الفلاسفة والعلماء- سلطة إدارة دفة الحكم استنادًا إلى أنهم يتمتعون بالمعرفة اللازمة لتحقيق الفضيلة التي اعتبرها أفلاطون غاية المجتمع السياسي.

-المدينة الفاضلة:

ومع أن مدينة الفارابي الفاضلة ظلت أمرًا مثاليًا (مثل جمهورية أفلاطون) صعب التحقيق فقد رأى أن هناك صفات فطرية لازمة في الحاكم والتي بلغت أثنى عشرة صفة.

وقد ذهب الفارابي إلى أن بني الإنسان في حاجة إلى الاجتماع للتعاون فيما بينهم إذ يقول إن كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه وفكرته هنا إنما تشبه فكرة أفلاطون الذي يرجع أساس الاجتماع إلى الحاجات المادية للأفراد.

يقسم الفارابي المجتمعات الإنسانية إلى فئتين كبيرتين، مجتمعات كاملة ومجتمعات غير كاملة.

-المجتمعات الكاملة: على ثلاث أنواع أولها وأكملها اجتماع الجماعة كلها في المعمورة أو المجتمع العالمي ثم المجتمع الأوسط وهو المجتمع الذي يشمل أمة، ثم المجتمع الأصغر وهو الذي يشمل مدينة، ويلاحظ هنا أن الفارابي يتأثر بالفكر الإسلامي وهي فكرة العالمية. فالإسلام خاصة والأديان عامة تدعو دائمًا إلى تحقيق فكرة العالمية وتمقت فكرة القوميات وتجزئة العالم إلى دول متطاحنة.

-المجتمعات غير الكاملة: فهي على ثلاث أنواع، المجتمع الفردي الذي يشمل قرية، والمجتمع الذي يشمل سكان حي أو جزء من مدينة وأخيرًا المجتمع المنزلي الذي يشمل أفراد أسرة واحدة.

وتقسم الأعمال في المدينة حسب الطبقات المختلفة بحيث تشكل أعلاها وأهمها أقرب الطبقات من الرئيس وبالعكس كل الأعمال الدنيئة لأبعد الطبقات من الرئيس، وتقاس دناءة الأعمال إما بالنسبة لموضوعها أو ما تشتمل عليه، وإما بالنسبة لعدم أهميتها وأخيرًا بالنسبة لسهولة القيام بها وعدم تعقدها.

إبن سينا 980م-1037م:

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، من أصل فارسي. ولد سنة 980م، بقرية من قرى بخارى، قريبًا من موطن الفارابي. وتعلم القرآن والحساب والهندسة والفقه والمنطق، وقرأ لنفسه الطب في كتب بقراط وجالينوس ونبغ فيه في سن مبكرة، إذ نجح في السابعة عشرة من عمره في علاج المرضى.

وأشهر مؤلفاته في الفلسفة ثلاثة كتب هي الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات وفي الطب كتاب القانون، وله رسائل أخرى صغيرة أشهرها رسالة الطير وحي بن يقظان.

وقد تتلمذ ابن سينا على يد الفارابي واعترف له بالأستاذية وتابعه في اعتناق الأرسطية المتأثرة بالأفلاطونية الحديثة، وفي أسلوب التوفيق بين الفلسفة الأرسطية والإسلام.

وأقر ابن سينا لله كل خصائص الكمال الإلهي التي قال بها أرسطو، كما أقر كل الصفات المعنوية غير الجسمية التي قال بها الإسلام كالعلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وردها جميعًا إلى صفة العلم، بعد أن أثبت أن هذه الصفة تتضمن جميع الصفات الأخرى.

ثم قال مخالفًا في ذلك مذهب أرسطو بأن علم الله لذاته يستتبع علمه لغيره مادام الله علة كل شيء ومادام العلم بالعلة يتضمن العلم بالمعلول.

واتبع ابن سينا في مشكلة قدم العالم وخلقه طريقة الفارابي في التوفيق بين أرسطو والإسلام. فاليونان عامة يرون أن المادة قديمة إذ لا يعقل إيجاد شيء من لا شيء، ولم يشذ عن ذلك أرسطو.

-آراؤه حول الوجود والاجتماع الانساني:

ويرى ابن سينا أن العالم الذي نحن فيه عالم كون وفساد، وهو يقتضي وجود الخير والشر وعنده أن الخير من طبيعة الوجود، والشر من طبيعة العدم. واللذات المعنوية أفضل من اللذات المادية. ويرى أن كمال الإنسان في تحرره من الشهوات؛ لأن اشتغال النفس بالشهوات واتصالها بالمادة، منعانها من الالتفات للملأ الأعلى. وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب، وخيرها النفوس التي تترفع عن الأمور المحسوسة. وتتطلع إلى المثل العليا، فتدرك من السعادة ما لا يخطر على قلب من ينزع إلى المادة.

وعن حاجة الإنسان إلى الاجتماع ونشوء الأسرة يوضح أن المدينة مجتمع من الناس يقوم على تعاون الأفراد؛ لأن الإنسان لا يحسن المعيشة إذا انفرد وحده شخصيًّا، فلا يمكن لأحد أن يتولى تدبير أمره من غير شريك يعاونه على ضروريات حاجاته، إذ أن الإنسان حيوان اجتماعي كما قال أرسطو.

ويرى ابن سينا أنَّ حياة الإنسان تختلف اختلافًا بينًا عن حياة الحيوان؛ لأن الحيوان يحيا حياة غريزية طبيعية، أما الإنسان فقد تنوعت صناعاته ومأكله وملبسه ومسكنه، فكثرت من جراء ذلك حاجاته وتنوعت فتحتم من ثم أن يقوم المجتمع على تعاون الأفراد، وهذا التعاون لا يتم إلا بتفاوت كفاءات الأفراد.

ويختلف الإنسان عن الحيوان بأنه يفكر لغده، ولاسيما بالنسبة إلى كل ما يتصل بحاجاته التي تقيم أوده وتعينه على الحياة، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى بناء المساكن والمنازل، بيد أنه لا يستطيع أن يستخلف من تسكن

إليه نفسه، ويرتاح إليه ضميره، وليس هناك من أن يتحقق فيه هذه الشروط مثل الزوجة التي تعتبر له شريكة في كل شيء، ومن هنا سبب نشوء الأسرة.

كما تطرق إلى مسألة التفاوت إذ يرى بأنه حكمة إلهية، وبأنه ضرورة اجتماعية حتى يكون لكل دوره ومكانته في المجتمع.

ويقسم بن سينا طبقات المدينة إلى ثلاث فئات وهم المديرون والصناع والحفظة وينبغي تنظيم هذه الفئات تنظيمًا متسلسلا بشرط ألا يكون في المدينة إنسان معطل، وقال أن على الحاكم أن يردع المتعطلين والكسالى وإن لم يرتدعوا نفاهم من الأرض.

وقد نبه ابن سينا إلى وجود بعض المشكلات الاجتماعية التي يبدو أنها كانت منتشرة في عصره كالقمار واللصوصية.

وأنَّ المجتمع الصالح هو الذي تنظم فيه العلاقة بين الرجل والمرأة، ويعرف كل منهما منزلته، وتنظيم هذه العلاقة يكون بالزواج الذي يؤدي إلى التناسل، وينبغي أن تطبق هذه السنة بالعدل.

أبو حامد الغزالي 1058م-1111م:

ولد في منتصف القرن الخامس الهجري في مدينة طوس بخراسان، ويعتبر حجة في علمه وقد أقام نظريته في الاجتماع والسياسة على تصور عضوي سبق به هربرت سبنسر حيث قارن بين الدولة أو المدينة وبين الجسم الإنساني، وفي اعتقاده أن موضوع السلطة التنفيذية من أخطر الموضوعات ولذا فقد ذهب إلى أن الحكم الصالح لا يتأتى إلا عن طريق الأمير الصالح ومن ثم كان اهتمامه بالنصائح العملية التي توصل إليها عن طريق البحث ومشاهدة أحوال الدولة والتي قدمها إلى حكام عصره وأمرائهم.

ويعتبر الغزالي رائدًا في الفكر الاجتماعي بسبب اهتمامه بالتنشئة الاجتماعية، وقد أوضح أن التنشئة الأولى للطفل يجب أن تكون على أساس من التربية الدينية التي تعمل على غرس مبادئ العقيدة في نفس الصبي منذ الصغر، حتى تثبت في عقله وتصبح واجهة لسلوكه.

ويبين الغزالي كيفية تزويد الفرد بالتربية الخلقية، ويرى أن تربية الطفل تبدأ بتعليم القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين وأن تبعد عنه أشعار العشق لأن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد.

وبين أثر الجزاء في تثبيت السلوك الحسن وتعديل السلوك الرديء فيقول : (مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس).

وينبغي أن يعلم الصبي طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، وكل من هو أكبر منه سنًا، ويجب أن يعود الصبي آداب المجالسة والاستماع والكلام، وأن يمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعب والسفه، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يجري من مصاحبة قرناء السوء، فإن القاعدة الأساسية عند الغزالي في تأديب الصبيان هي حفظهم من رفاق الشر.

يتحدث الغزالي عن الطبقات فيقول: هناك ثلاث طوائف:

الأولى: الفلاحون والرعاة والمحترفون.

الثانية: طائفة الجندية والحماة بالسيف.

الثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء، وهم العمال والجباة وأمثالهم.

ويوضح تشابك العلاقات الاجتماعية فيقول: (فانظر كيف ابتدء الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن، وإلى ماذا انتهى، وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب آخرى، وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور).

إبن رشد 1126م- 1198م:

القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد بقرطبة سنة (1126 م) من أسرة مشهورة بالفضل والرياسة، كان أبوه قاضياً، وكان جده قاضي القضاة في قرطبة، درس ابن رشد الفقه، والطب والرياضيات والفلسفة، وتولى القضاء لعدة سنوات في (اشبيلية) ثم تولى القضاء في (قرطبة).

كانت تربطه في بادئ الأمر علاقات طيبة بالخليفة المنصور، الأمر الذي جعله مقربا منه إلى حد كبير، وهمس أعداء ابن رشد من أهل العلم بأن ابن رشد كثير الاشتغال بالفلسفة وعلوم اليونان، وهذا أمر يخالف التعاليم الدينية فتحول الخليفة ونقم على ابن رشد كي يرضي العامة من أبناء شعبه، وأكثر من ذلك أمر بإبعاده.

وهكذا بقي ابن رشد مغضوبا عليه إلى أن تولى الأعيان الشهادة له عند السلطان فرضي عنه، ثم مضت الأيام وتنكر الناس للفيلسوف، فنفي إلى بلاد المغرب ونكل به وأحرقت كتبه، ومات في مراكش سنة 1198م.

ويتميز ابن رشد بأنه كان من أكبر علماء الإسلام ومن أخصب الكتاب في اللغة العربية وقد ألف وكتب العديد من المؤلفات في الفقه وأصول الدين واللغة والطب والفلك، وأهم ما يميز فكر ابن رشد أنه كان شديد الإعجاب بفكر وفلسفة الفيلسوف اليوناني أرسطو، وتفرغ تفرغاً تاماً لإتمام كتابه بعنوان (الشروح والجوامع في تفسير أقوال المعلم الأول) وجاء كتابه الثاني بعنوان (تهافت التهافت) والذي كتبه رداً على كتاب الإمام أبو حامد الغزالي (تهافت الفلاسفة) وكان مقصد الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) أن يبطل أراء الفلاسفة في الإلهيات ويزعزع ثقة الناس بهم، وكان يرمي آخر الأمر إلى أن يثبت قصور الإنسان عن أن يعرف الحقيقة في الأمور الإلهية، وأن يبين أن الوصول إلى الحق لا يكون بالحجج العقلية والاستدلالات الفلسفية، ولكن بالكشف الإلهامي وبنور يقذفه الله في القلب. وكان لهذا الموقف العدائي للفلسفة أثره في ركود ريحها في العالم الإسلامي.

إلى أن قام ابن رشد ليبين في كتابه (تهافت التهافت) ما في أراء الغزالي من سفسطة تقوم على الأقاويل الجدلية والخطابية، فتناول ابن رشد المسائل والقضايا محل النزاع بين الفلاسفة والمتكلمين، وبسط القول فيها، مبيناً أن آراء الفلاسفة لا تخالف الشرع إلا ظاهراً، وأنهم من أجل ذلك لا يستحقون أن يرموا بما رماهم به الغزالي ظلماً وعدواناً.

وقد تعرض ابن رشد لنقد أفكاره ومحاربتها واتهم بالزندقة وهوجمت فلسفته مهاجمة عنيفة من جانب اللاهوتيين الذين صوروها على نمط يلائم أهوائهم وغاياتهم. فاتهم ابن رشد بالقول بقدم المادة وتطور الكون بقوة كافيه فيه، والقول بإله لا ذات له، ولا يعلم الجزئيات، كما اتهموه بالقول بعقل كلي لا شخصي، والقول بفناء النفس الفردية وإنكاره حشر الأجساد.

وقد نقد ابن رشد الحكام الجاهلين والعلماء المعادين للفلسفة وحمل على القائلين بالعزلة والتوحد مثلما قال ابن باجة وابن طفيل في كتاب (حي بن يقظان) الذي يثبتان فيه جواز الحياة المنفردة للإنسان وإمكانية أن يصل الطفل الذي ترك في الغابة بعد أن يكبر إلى القيم الروحية والخلقية للمجتمع.

فقد رأى ابن رشد أن حياة التوحد لا تثمر صناعات ولا علومًا، وأن الإنسان لا يتمتع فيها بأكثر مما اكتسب بالفطرة، ولكن يجب على كل فرد أن يأخذ بنصيب في إسعاد المجموع فذلك هو الواجب الطبيعي عليه وزاد ابن رشد بأن قال (يجب على النساء أن يقمن بخدمة المجتمع والدولة كالرجال، فإن الكثير من فقر عصره وبؤسه إنما يرجع إلى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد المتاع فإن ذلك يمكن أن توجه إليه جميع المطاعن بدلاً من أن يمكنها من المشاركة في إنتاج الثروة المادية والعقلية وفي حفظها.

وهو لا يقر أن يكون الخير والشر بناء على أمر الله ونهيه فقط بل يرى أن العمل يكون خيرًا وشرًا لذاته أو بحكم العقل فالعمل الخلقي هو الذي يصدر عن الإنسان بإرادة وتفكير ولكن المقياس ليس هو عقل الفرد بل ما تمليه مصلحة الدولة.